

« الوسطية بالسنة النبوية »

جامع التركي بالدمام في ٢/٦/١٤٤٦هـ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ
أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا
هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا
مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أما بعد : فإن السنة النبوية والقرآن الكريم ، كلاهما يخرجان من
مشكاة الوحي ، فالسنة وحي كما هو القرآن الكريم وحي ؛ قال
تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم :
٣-٤]

والسنة في عمومها تشمل أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ،
وأفعاله ، وتقاريراته وصفاته ، وكذا ما يتعلق بالصحابة والتابعين .
ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو القدوة والأسوة فيما يفعل أو
يذر ، قال تعالى : { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ
كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [سورة سورة
الأحزاب ، الآية ٢١].

والأمة الإسلامية لن يستقيم أمر أفرادها وتصلح أنفسهم وأحوالهم إلا
باتباع كتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وآله وسلم ؛ قال تعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ

❖ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿[الأنفال: ٢٠ -

٢١]. رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ».

وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي» [صححه الألباني].

ومما يميز هذه الأمة وبين فضلها أنها وسط بين الأمم ؛ كما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [سورة البقرة ، الآية ١٤٣]

وقد مدح الله التوسط في مواطن كثيرة من كتابه مثل {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [سورة الفرقان ، الآية ٦٧] ، وقال ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [سورة الإسراء ، الآية ١١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [سورة الإسراء ، الآية ٢٩] ، وقال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [سورة لقمان ، الآية ١٩] .

ومنهج الوسطية قامت السنة النبوية بتأصيله والتأكيد عليه ؛ قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم- «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَىءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ» [رواه البخاري]

ووصى النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضى الله عنهما حين وجههما إلى اليمن قائلاً لهما «يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، بَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا» [رواه البخاري]

وفى خطاب عام للناس جميعاً يروى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا» [رواه البخاري]

وكانت الغاية من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي التيسير على الناس، ورفع العنت عنهم، يقول عليه الصلاة والسلام «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَبِّتًا وَلَا مُتَعَبِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيسِّرًا» [رواه مسلم]

ما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأتهم. [رواه البخاري]

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلم أن يصلى وهو يدافعه الأخبثان : البول والغائط، أو أن يصلى وهو حاقن، أو أن يصلى بحضرة طعام، وإذا حضر العشاء والعشاء فابدئوا بالعشاء، ونهى المسلم أن يصلى وهو ناعس؛ ربما يذهب يستغفر ربه فيسب نفسه وهو لا يدري .

ويدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة، وهو يريد أن يطيل فيها، فيسمع بكاء الصبي فيتجاوز في صلاته .

وقصة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاة التراويح، وعدم خروجه إلى المسجد لها بعد ثلاث أو أربع ليال، وقوله لأصحابه رضى

اللَّهِ عَنْهُمْ «لم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنى خشيت أن تفرض عليكم». [رواه البخاري]

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينكر على من يخرج عن منهج الوسطية والاعتدال ومن ذلك :

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ قَالَ: «مَنْ هَذِهِ؟» قَالَتْ: هَذِهِ فُلَانَةٌ، تَذَكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا، قَالَ: «مَهْ»، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا»، وكان أجب الدين إليه ما دأوم صاحبه عليه. متفق عليه.

وهذا الملل الذي يفهم من ظاهر الحديث أن الله يتصف به، ليس كمللنا نحن، لأن مللنا نحن ملل تعب وكسل، وأما ملل الله عز وجل فإنه صفة يختص به جل وعلا، والله سبحانه وتعالى لا يلحقه تعب ولا يلحقه كسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [لق: ٣٨] هذه السماوات العظيمة والأرض وما بينهما خلقها الله تعالى في ستة أيام: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، قال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ يعني ما تعبنا بخلقها في هذه المدة الوجيزة مع عظمتها.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: «ما هذا الحبل ؟» قالوا: هذا حبل لزيب، فإذا فترت تعلقت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «لا، حلوه، فليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد»

[رواه البخاري]

قصة معاذ بن جبل رضى الله عنه حين صلى بالناس صلاة العشاء، فافتتح البقرة، فانحرف رجل، فسلم، ثم صلى وحده وانصرف، فقالوا له: أنافقت يا فلان؟ فقال: لا والله، ولأتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنا أصحاب نواضح نعمل بالنهار، وإن معاذاً صلى معك العشاء، ثم أتى فافتتح بسورة البقرة، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على معاذ، فقال «يا معاذ: أفتان أنت، اقرأ بكذا، واقرأ بكذا»، ... وفى رواية «اقرأ والشمس وضحاها، والضحى والليل، وسبح اسم ربك الأعلى» [متفق عليه]

وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ برجل، وهو يهادى بين ابنيه، قال «ما هذا؟» قالوا: نذّر أن يمشى ولا يركب. قال صلى الله عليه وسلم «إن الله لغنى أن يُعذّب هذا نفسه». فأمره أن يركب. [رواه البخاري]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم ويصوم. فقال النبى صلى الله عليه وسلم «مُرّوه فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه». [رواه البخاري]

قصة الرهط الثلاثة الذين ذهبوا إلى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها وقالوا: وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم،

وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال بعضهم: أنا أصلى الليل أبداً . وقال آخر: وأنا أصوم الدهر لا أفطر. وقال آخر: وأنا لا أتزوج النساء . وقال بعضهم: وأنا لا أكل اللحم . فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال « أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، فمن رغب عن سنتى فليس منى». [رواه البخاري]

تماماً.. فإن من يسر الإسلام وسماحته ووسطيته واعتداله أن جعل التكاليف والمسئوليات المنوطة بهذا الإنسان فى حدود قدرته واستطاعته ، ووزعها توزيعاً متوازناً :

فإن لربك عليك حقاً ، أن تعبده ولا تشرك به شيئاً. وإن لنفسك عليك حقاً ، ألا تضرها ولا تشق عليها ، بل تحسن إليها. وإن لأهلك عليك حقاً.. وأهلك على نوعين : خاص.. وهم ألصق الناس بك. وعام.. الناس جميعاً.

وإن لعدوك عليك حقاً.. { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } [سورة المائدة ، الآية ٨] ..

إن أى إنسان لا يلزم نفسه فى تعبده وأوراده بالسنة النبوية التى أصلت منهج الوسطية فى الفكر والسلوك ، سيندم ولات ساعة مندم ، ويترهب ويسوء مزاجه ، ويفوته خير كثير من متابعة سنة نبيه الرؤوف

الرحيم الحريص على نفعهم، وما زال الأب الرحيم صلى الله عليه وسلم معلماً للأمة أفضل الأعمال، وأمرنا بهجر التبتل والرهبانية التي لم يبعث بها.